﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ [الحجر: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجنَّة ثمرة الإخلاص والاختصاص

لَمّا ذَكَرَ مَصيرَ الغاوينَ؛ أتبعَهُ ذِكْرَ ما أعدَّه للمخلِصينَ المخلَصينَ، وهم الَّذين اتَّقوا الشِّرك والمعاصيَ، ليظهر التَّباين بين الفريقين(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعُيُونٍ﴾: أصلُ (عين): أَصْلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على عُضْوٍ بِهِ يُبْصِرُ، وينظُرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ منه، والأَصْلُ في جَمِيعِهِ ما ذكرنا، قالَ الخليلُ: العَيْنُ النّاظِرَةُ لكُلِّ ذي بَصَرٍ، والعَينُ تُجْمَعُ على أعْيُنٍ وعُيونٍ وَأعْيانٍ(2). وعَيْنُ الشَّيْءِ نَفْسُهُ، يُقال: أخَذْتُ مالي بِعَيْنِه، أي: نَفْسَ مالي، وتأتي بمعنى المالِ العَتِيدِ الحاضِرِ، يُقال: اشْتَرَيْتُ عَيْنًا بِعَيْنٍ، أيْ: حاضِرًا بِحاضِرٍ(3). ويُستعار العَيْنُ لمعانٍ هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة، واستعير للثُّقب في المزادة تشبيهًا بها في الهيئة، وفي سيلان الماء منها، فاشتُقَّ منها: سقاء عَيِّنٌ ومُتَعَيِّنٌ: إذا سال منها الماء، ويقال لمنبع الماء: عَيْنٌ تشبيهًا بها لما فيها من الماء، ومن عَيْنِ الماء اشتقَّ: ماء مَعِينٌ، أي: ظاهر للعيون، وعَيِّنٌ، أي: سائل(4). ومِن معانيها: الجاسوس، وما ضُرِبَ مِن الدَّنانيرِ والدَّراهِم، وغير ذلك(5). والمقصودُ بالعيون في الآيةِ: جَمْعُ عَيْنٍ، اسمٌ لثُقْبٍ أرضيٍّ يَخرجُ منه الماءُ مِن الأرْضِ.

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/197، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عين).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عين).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (عين).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

حال أهل الجنَّة وما يتمتَّعون به من نعيمٍ مُقيم

إنَّ الذين اتَّقَوا اللّهَ تعالى بامتثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهَى، في بساتينَ قد احتَوَت على جميعِ الأشجارِ، وأينَعَت فيها جميعُ الثِّمارِ، حتى سترت ما فيها من كثرتها وكثافتها، وهم كذلك في عُيونٍ مِثْل عُيونِ الماءِ والخَمرِ، والسَّلسبيلِ والتَّسنيمِ، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾ [الدخان: 51 - 52][1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستئناف في الآية:

التَّفنُّن في التَّعبير عن المعنى من عادة القرآن في أساليبِه

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ على طريق الاستئناف الابتدائي، ففيه انْتِقالٌ مِنْ وَعِيدِ الْمُجْرِمِينَ إِلَى بِشارَةِ الْمُتَّقِينَ عَلَى عادَةِ الْقُرْآنِ في التَّفَنُّنِ[2]، في الأساليب من جهة، وذكر المقابل الذي يظهر جمال مقابله وكمال وصفه في الحُسْنِ أو السوء.

فائدة ﴿إِنَّ﴾:

تأكيد مضمون الجملة وتقريرها

تفيد ﴿إِنَّ﴾ – في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ - تأكيدَ مضمونِ جملة نعيم المتقين وتقريرَها، في مقابل تأكيد عذاب الغاوين وأتباع إبليس أجمعين في الآيات السابقة.

براعة حذف متعلّق ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

أفضل التَّقوى ومبدؤُها اتِّقاءُ الشِّرك بالله

حُذِفَ متعلِّق ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لإفادة العموم، ليشمل المتقين الشِّرك والفواحش وغوايةَ إبليسَ، وكلَّ سوءٍ يُتَّقى منه، كما يحتمل أن يكون المراد المتَّقينَ الشِّرْكَ بِاللّه تَعالَى والكُفرَ به؛ لأنَّه المتبادر في مقابلة حالِ أهل جهنَّم التي تجمع الكافرين، ولأنَّ اتِّقاء الشِّرك أصلُ التَّقوى ومبدؤُها، فيكون المراد منهم المخلَصين الذين ذكرهم اللّه في قولِه:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/32، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/54.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، وهم المقرّون قولًا واعتقادًا بتوحيدِ اللّه تعالى وبرسالة رسوله ﷺ، وسيأتي تقرير هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

دلالة اسم الفاعل في قولِه: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

التَّقوى سببٌ لدخول الجنَّة والاستقرار فيها والتَّلذُّذ بنعيمِها

لمّا كان لفظُ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ، وكانت (ال) فيه للاستغراق؛ إذ هي اسم موصول؛ لدخولِها على الصِّفة الصَّريحة، وتقدير الكلام: إنَّ الذين اتَّقوا، وقد أفاد ذلك أنَّ جميع من اتَّصف بصفة التَّقوى في جنّات وعيون، وفي مجيء (ال) اسمَ موصولٍ إفادةٌ أخرى، وهي بيان السبب في حصول الجزاء من خلال صلةِ الموصول، والمعنى: أنَّ تقواهم هي سببُ استقرارِهم يومَ القيامةِ في جنّاتٍ وعيونٍ.

دلالة الإخبار في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

تنوُّع النِّعَم على المؤمنين في الجنَّة

لمّا جاء الإخبار بالجمع عن الجمع المفيد للاستغراق بدلالة (ال) في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ احتمل أن يكون لكلِّ فردٍ من المتَّقين جنّاتٌ كثيرة وعيونٌ كثيرة، فيكون الجمعُ من الاستغراق الإفرادي، كما يحتمل أن يكون لكلِّ واحد منهم جنَّة وعين، فيكون من الاستغراق المجموعي على طريق مقابلة المجموع بالمجموع[2].

سرُّ عطف ﴿وَعُيُونٍ﴾ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

كمالُ انتفاع المتَّقين بالعيونِ التي في الجنَّة

لمّا كان العطف يقتضي مشاركة المعطوف للمعطوف عليه في العامل؛ كان ظاهرُه أن تكون الظَّرفية المدلول عليها بـ﴿فِى﴾ داخلةً على المعطوف والمعطوف عليه، فأمّا كونهم مظروفين في الجناتِ؛ فظاهرٌ، فالمتَّقون في جنّات، وأمّا حلولهم في العيون؛ فلا يتصوَّر؛ لأنَّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/147، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/191، والخازن، لباب التأويل: 3/57.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/301.

المقصود بكونِهم في العيون أن يروها، وتقع عليها أبصارُهم، وينتفعوا منها، وهو كقوله تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣﴾ [الدخان: 53]، وإنَّما هم يلبسون السُّندسَ، فأمّا الإستبرق، فلا يُلبَسُ؛ لأنَّه من البُسط، فيكون المرادُ منه الانتفاعَ، ونكتة التَّعبير بالظَّرفية في العيون وفي الإستبرق كذلك، الإشعارُ بكمال الانتفاع بها بحيث كأنَّ العيونَ صارتْ ظرفًا يحويهم، فهي محدقة بهم من كلِّ ناحية، أو يقدَّر كلُّ ظرفٍ بحسبِه، فالمتَّقون في خلالِ جنّاتٍ وفي خلال عيونٍ، بمعنى: أنَّهم بين الجنّاتِ والعيونِ، وذهب بعض المفسِّرين إلى تقدير مضاف، أي: إنَّ المتَّقين في نعيم جنّاتٍ وعيون[1]، والوجه الأوَّل أولى وأظهر؛ لما فيه من كمال المعنى ولتخلُّصِه من التَّقدير.

سبب إيثار اقترانِ العيون بالجنّات:

تكثير نِعَم الجنَّة، فالعيونُ التي في الجنَّة مغايرةٌ للأنهار التي فيها

لما كان المرادُ بالجنّاتِ البساتينَ التي لها ظلال، والظلُّ والماءُ مطلوبان للعرب، ولكلٍّ ما ذرأ الله من النسم؛ قرن إلى الجنّات العيونَ، وجعل ذلك بإزاء ما يُعذَّب به أهل جهنَّمَ، فيكونُ المرادُ مِنَ العُيونِ الينابيعَ المُغايِرةَ للأنْهارِ المذكورة في القرآن[2].

فائدة الجمع في قولِه: ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾:

كثرةُ مِنَنِ اللهِ على أهلِ الجنَّة

أفاد الجمع التَّكثير بمعنى يكونون في جنّات كثيرة وعيونٍ كثيرة[3]؛ إشعارًا بكثرة النِّعم وإظهارًا لمنَّته تعالى عليهم.

فائدة التَّنكير في قولِه: ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾:

جنّاتُ الآخرة تختلف عن جنّاتِ الدُّنيا في نوعِها وفي أوصافِها وفي حجمها

أفاد التَّنكير تعظيم الجنّات والعيون وتفخيمهما وتكثيرهما، فلا يُبلَغُ كُنهُها، ولا يقادر قدرها[4]، بمعنى: أنَّها جنّات ليس كسائر

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/379، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/165، وزين الدين الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن آي التنزيل، ص: 487، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/6.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/147، والإسكافي، درة التنزيل، ص: 1205.

(3) زين الدين الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن آي التنزيل، ص: 487.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/165، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/138، والقنوجي، فتح البيان: 13/193.

الجنّات التي في الدنيا في نوعِها وأوصافِها، وعيونٌ ليست كسائر العيونِ التي في الدنيا كذلك.

بلاغة المجاز في الآية:

ثباتُ المتَّقين على الإيمانِ في الدنيا يدلُّ على دخولِهم الجنَّة واستقرارِهم فيها يومَ القيامةِ

لمّا أخبر الله تعالى عن المتَّقين بأنَّهم في جنّاتٍ وعيونٍ - في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ - وكان بعضهم أحياءً لم يموتوا، كما أنَّ بعضهم لم يولدْ بعدُ؛ كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم في جنّاتٍ وعيونٍ إما على طريقِ المجازِ المرسلِ؛ ليكونَ من قبيل تسمية الشيء بما يؤول إليه، بمعنى سيكونون في جنّات وعيونٍ، وإمّا على طريقِ مجاز التغليب؛ بأنْ غُلِّبَ مَنْ مات على مَنْ لم يمُتْ، ونكتة التَّعبير بالمجاز الإشعار بتحقُّق الوقوع، وأنَّه أمرٌ ثابتٌ، للعنايةِ بحال المؤمنين، فجَعَلَ ما يَسْتَقِرّونَ فِيهِ فِي الْآخِرَةِ كَأَنَّهُمْ مُسْتَقِرّونَ فِيهِ فِي الدُّنْيا، وَجاءَ حالُ الْغاوِينَ مَوْعودًا بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلوها[1].

توجيه القراءات القرآنية في ﴿وَعُيُونٍ ٤٥﴾:

قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وابن ذكوان عن ابن عامر ﴿وَعِيُونٍ﴾ بكسر العين، لمناسبة الياء، ففي القراءَةِ تخفيفٌ لفظيٌّ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام بضمِّها، على الأصلِ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/482، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/6.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/482.